التوضيح



في شرح

القواعد الأربع

عبد الله بن محمد الجهني

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير المرسلين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين....وبعد :

فإن هذه الرسالة المختصرة تضمنت ذكر قواعد مهمة في التوحيد ، والشرك .

وهي عبارة عن أربع قواعد ، استنبطها الشيخ رحمه اللّه من أدلة الكتاب والسنة - كعادته رحمه اللّه في سائر مصنفاته - .

ويمكن أن نجعل هذه الرسالة على قسمين :

١. مقدمة :

تتضمن بيان أهمية إخلاص الدين للّه ، وبيان خطر الشرك .

٢.صلب الموضوع :

وهو عبارة عن أربع قواعد تتعلق بالشرك .

بسم الله الرحمن الرحيم

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة ، وأن يجعلك مباركاً أينما كنت ، وأن يجعلك ممن إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر ، وإذا أذنب استغفر ، فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة .

اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم : أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين ، كما قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .

فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته ، فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد ، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة ، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت ، كالحدث إذا دخل في الطهارة .

فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها ، وأحبط العمل ، وصار صاحبه من الخالدين في النـــار ، عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك ، لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة ، وهى الشرك بالله الذي قال الله تعالى فيه ﴿ إِنَّ اللَّـــهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ .

وذلك بمعرفة أربع قواعد ، ذكرها الله تعالى في كتابه .

هذا هو القسم الأول من هذه الرسالة ، وهو عبارة عن مقدمة .

وخلاصتها : بيان أهمية التوحيد ، والحذر من الشرك ، وشوائبه ، وضرورة معرفته ، حتى لا يقع الإنسان فيه .

قوله [بسم الله الرحمن الرحيم] .

درج المصنفون من أهل العلم على البدء بالبسملة في مصنفاهم ، وذلك لعدة أمور :

١. اقتداءً بكتاب الله عز وجل .

٢. تأسياً بسنة المرسلين . فقد كان ﷺ يبدأ رسائله بالبسملة ، كما في حديث هرقل في الصحيحين ، وكما في صلح الحديبية .

وقال تعالى عن رسالة سليمان إلى بلقيس ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

٣. فعل الصحابة رضوان الله عليهم . ومن ذلك ما جاء في صحيح البخاري .... ثمامة بن عبد الله بن أنيس أن أنساً حدثه أن أبا بكر كتب له هذا الكتاب لما وجهه إلى البحرين : (بسم الله الرحمن الرحيم هذه فريضة الصدقة التي فرض رسول الله ﷺ على المسلمين ...) ثم ذكر مقدار الصدقة .

٤. طريقة العلماء في مؤلفاهم . قال ابن عبد البر : قال بعضهم : يجب [(١)] على كل شارع في التصنيف أربعة أمور : البسملة ، والحمدلة ، والصلاة على النبي ﷺ ، والتشهد .

---

(١) ليس المراد الوجوب الشرعي ، بل من حيث الصناعة والتأليف .

وقال ابن حجر : استقر عمل المصنفين على البدء بالبسملة في كتب العلم .

وأما حديث (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر) فقال عنه الشيخ الألباني : ضعيف جداً[(١)] .

وكذلك حديث (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع) وفي رواية (بحمد الله) وفي رواية (بالحمد) وفي رواية (فهو أجذم) ضعفه الألباني . انظر إرواء الغليل ج١ ص٢٩ .

قوله [أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة ، وأن يجعلك مباركاً أينما كنت] .

هذا دعاء من المؤلف للقارئ والسامع ، يدل على حسن قصد المؤلف ، وحسن دعوته – نحسبه كذلك والله حسيبه – .

وهي جملة دعائية فيها تلطف ولين ، وسبق الكلام عليها في شرح الأصول الثلاثة ، وأنه لا بد للداعية من الجمع بين حسن اللفظ ، وحسن القصد .

قوله [وأن يجعلك ممن إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر ، وإذا أذنب استغفر ، فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة].

وهذا دعاء أيضاً من المؤلف للقارئ والسامع ، ويتضمن أيضاً إرشاداً له بالتمسك بهذه الثلاث خصال الجامعة لسعادة الدارين .

قال ابن القيم في كتابه الوابل الصيب :...وأن يجعلكم ممن إذا أُنعم عليه شكر ، وإذا أُبتلي صبر ، وإذا أذنب استغفر ، فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد ، وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه ، ولا ينفك عبد عنها أبداً ، فإن العبد دائم التقلب بين هذه الأطباق الثلاث .

قوله [اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم : أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين ، كما قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾] .

قوله [اعلم أرشدك الله لطاعته] . هذه جملة دعائية استعطافية أيضاً .

قوله (أن الحنيفية [(٢)] ملة إبراهيم : أن تعبد الله مخلصاً له الدين) .

الحنيف : مشتق من الحَنَف ، وهو الميل .

فالحنيف : المائل عن الشرك قصداً إلى التوحيد . أو : المائل عن الشرك ، المائل إلى التوحيد .

فيكون معناه : المقبل على الله ، المعرض عن كل ما سواه .

وعرف الحنيفية بقوله : أن تعبد الله مخلصاً له الدين .

وهذا أمر بالتوحيد ، ونهي عن الشرك ، لأن قوله (مخلصاً) تنفي الشرك .

(١) وقد حسن الحديث ابن الصلاح ، والنووي .

(٢) وأما حديث (بعثت بالحنيفية السمحة) فسنده ضعيف . قال ابن القيم : أي : بالملة ، فهي حنيفية في التوحيد ، سمحة في العمل .

ومِلة إبراهيم هي التي أمر الله رسوله ﷺ باتباعها ، وهي ملة جميع الرسل ، كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

ومعنى الملة لغة : مأخوذة من الملل ، وهو التكرار والمعاودة . ومنه (الملل) وهو تكرار الشيء على النفس .

شرعاً : ما شرعه الله على لسان رسله من العقائد ، والأحكام ، فهي بمعنى الدين .

قوله [فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته ، فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد ، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة ، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت ، كالحدث إذا دخل في الطهارة .

فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها ، وأحبط العمل ، وصار صاحبه من الخالدين في النار ، عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك ، لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة ، وهى الشرك بالله الذي قال الله تعالى فيه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ .

وذلك بمعرفة أربع قواعد ، ذكرها الله تعالى في كتابه] .

يبين المؤلف في هذه الجملة أهمية تخليص العبادة من الشرك وشوائبه ، ويبين أن العبادة لا تقبل إلا مع التوحيد ، وأن الإنسان لو عمل أعمالاً من الخير ، من صلاة ، وصيام ، وزكاة ، وحج ، وغيرها ، ولكنه أشرك مع الله في العبادة ، بدعاء غيره ، أو الذبح لغيره ، أو الاستعانة ، أو الاستغاثة ، أو الاستعاذة بغيره ، أو الخوف ، أو الرجاء من غيره ، على وجه التعبد في ذلك كله ، فإنه مشرك خالد في النار ، والعياذ بالله ، ولا تنفعه تلك الأعمال .

والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ ولقد أوحي إليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكنن من الخاسرين ﴾ فإذا كان هذا الخطاب للأنبياء ، فغيرهم من باب أولى .

ثم شبه ذلك بالصلاة ، وأن الإنسان لو ركع ، وسجد ، وقام ، وكبر ، وسبح......ثم أحدث أثناء صلاته ، لبطلت تلك الأعمال كلها ، ولوجب عليه إعادة الصلاة [١] ، وكذلك الشرك إذا دخل في العبادة أبطلها كلها ، والعياذ بالله .

وكل هذا يدل على وجوب معرفة الشرك ، والحذر منه ، ولذا ذكر هنا هذه القواعد ؛ لأن كثيراً من الضُلال يلقون الشبه لتزيين ضلالاتهم ، وشركهم .

ومما يُذكر عن المؤلف أنه قال يوماً : يذكر البارحة أنه وُجِد رجل على أمه يجامعها ، فاستعظم المحضر ذلك ، وضجوا منه رأوا أنه منكر كبير ، وهو كبير . ثم قال لهم مرة أخرى : واحد أصيب بمرض شديد فقيل له : اذبح ديك لفلان (ولي) فلم يستعظموه . ثم بين لهم أن الأول فاحشة يبقى معها التوحيد ، والآخر ينافي التوحيد كله . أفاده الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله .

(١) المراد بطلان العمل ، وأما الثواب فيحصل على ذلك العمل إن شاء الله ، لكنه يطالب بالإعادة .

القاعدة الأولى :

أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المدبر ، وأن ذلك لم يدخلهم في الإسلام ، والدليل قوله تعالى ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

وخلاصتها : أن الإقرار بتوحيد الربوبية فقط لا يكفي للدخول في الإسلام ، والخلوص من الشرك ، بل لابد من إفراد الله بالعبادة .

وبيان ذلك : أن الكفار الذين قاتلهم النبي ﷺ كانوا يقرون في الجملة بتوحيد الربوبية ، كما بين الله تعالى ذلك في آيات كثيرة من كتابه ، منها ما ذكره المؤلف هنا ، ومع ذلك لم يكن هذا الإقرار مخلصاً لهم من الشرك ، أو منجياً لهم من عذاب النار ، وذلك لحصول الخلل في توحيد العبادة ، حيث صرفوا أنواعاً من العبادات لغير الله تعالى .

تنبيه : مما ينبغي أن يعلم في هذا المقام ، أن نقيد إقرار الكفار بتوحيد الربوبية بتقييدين :

أولاً : أن إقرارهم بتوحيد الربوبية مجمل من جهتين :

١. من جهة الإقرار : حيث أنه وجد عند بعضهم إنكار لبعض أفراد الربوبية ، كما في قوله ﷺ : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب .

ومن ذلك إنكار البعث ، وبعض الاعتقادات في التمائم ،والطيرة ، والسحر ونحوها . فهذا يدل أن إقرارهم بالربوبية مجمل .

٢. من جهة الأفراد : فبعض الكفار وجد عنده إنكار لبعض أفراد الربوبية . كما سبق هنا .

وعليه نقول : إن أكثر الكفار يقرون بأكثر أفراد الربوبية ، ويوجد عند بعضهم إنكار لبعض أفراد الربوبية .

ثانياً : أن إقرار الكفار بتوحيد الربوبية ليس كإقرار المؤمنين ، بل هو إقرار ناقص ، وإلا لقادهم إلى إفراد الله بالعبادة .

ولذا قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : فأما توحيد الربوبية فهو الأصل ، ولا يغلط في الألوهية إلا من لم يعطه حقه .

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله : وهي – يعني أنواع التوحيد الثلاثة – متلازمة ، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر ، فمن أتى بنوع منها ، ولم يأت بالآخر ، فما ذاك إلا لأنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب .

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم : فإقرارهم بالربوبية ناقص ، لو كان حقيقة لعملوا بمقتضاه ، لو تمموا أنه الخالق وحده ، الرازق وحده ، لما جعلوا له نداً من خلقه ، لكنه مع ذلك فيه ضعف ، لو أنه تام لما تخلف عنه إفراده بالعبادة .

وقال الشيخ حافظ حكمي : ومن هنا تبين لك ما قدمناه من أن الشرك في الألوهية يستلزم الشرك في الربوبية والأسماء والصفات .

وعليه نقول : إطلاق القول (بأن كفار قريش كانوا يؤمنون ، أو يقرون بتوحيد الربوبية) فيه تجوز .

والغرض من إيراد هذه القاعدة :

تجلية وبيان حقيقة شرك كفار قريش .

ورد شبهة من يقصر التوحيد على توحيد الربوبية ، ويجعل من أتى بهذا النوع من التوحيد فهو موحد[١] .

وعليه لا يعد من دعا غير الله مشركاً ، ولا من استغاث بغير الله مشركاً ، ولا من ذبح لغير الله مشركاً ، إلا إذا اعتقد فيه أنه ينفع ويضر استقلالاً .

وسيأتي الرد على ذلك مفصلاً في شرح كتاب كشف الشبهات إن شاء الله .

---

(١) كما يقولون في معنى التوحيد : واحد في ذاته لا قسيم له ، واحد في صفاته لا شبيه له ، واحد في أفعاله لا شريك له .

القاعدة الثانية :

أنهم يقولون : ما دعوناهم ، وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة ، والشفاعة .

فدليل القربة قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّـهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّـهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ .

ودليل الشفاعة قوله تعالى ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّـهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّـهِ ﴾ .

والشفاعة شفاعتان :

١. شفاعة منفية .

٢. شفاعة مثبتة .

فالشفاعة المنفية : ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله .

والدليل قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

والشفاعة المثبتة : هي التي تطلب من الله .

والشافع مكرم بالشفاعة ، والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن ، كما قال تعالى ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ .

وخلاصتها : أن كفر المشركين الذين كانوا في زمن النبي ﷺ إنما كان بطلب الشفاعة من غير الله .

وبيان ذلك : أن المشركين الأولين الذين كانوا في زمن النبي ﷺ كانوا يقرون بتوحيد الربوبية في الجملة –كما سبق – وإنما كان شركهم في توحيد الألوهية ، وذلك بصرف أنواع العبادات لغير الله ، بقصد طلب الشفاعة إلى الله ، والقربى منه سبحانه .

وذلك لأن المشركين المتأخرين توجهوا إلى الأولياء والصالحين –زعموا – وصرفوا لهم أجل العبادات وأعظمها ، كالدعاء ، والذبح ، والخوف ، والرجاء وغيرها ، وزعموا أنهم بهذا الفعل لم يقعوا في الشرك ، لأنهم بهذا الفعل لم يريدوا منهم إلا الشفاعة ، وطلب القربى عند الله تعالى ، و لم يريدوا عبادتهم .

فأراد الشيخ بهذه القاعدة أن يبين أن هذا الفعل ، وهذا الاعتقاد هو عينه فعل كفار قريش واعتقادهم ، كما قال تعالى عنهم ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّـهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّـهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ .

....

قال ابن تيمية : من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك ، بل هذا دين المشركين عباد الأوثان .... وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى .

ويقول السعدي : أي فهؤلاء قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص ، وتجرؤا على أعظم المحرمات ، وهو الشرك ، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء ، الملك العظيم بالمملوك ، وزعموا بعقولهم الفاسدة ، ورأيهم السقيم ، أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء وشفعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم ، أن الله تعالى كذلك ، وهذا القياس من أفسد الأقيسة ، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق ، مع ثبوت الفرق العظيم ، عقلاً ونقلاً وفطرة .

فإن الملوك إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم ، لأنهم لا يعلمون أحوالهم ، فيحتاجون إلى من يعلمهم بأحوالهم .

وأما الرب تعالى ، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها الذي لا يحتاج إلى من يخبره بأحوال رعيته وعباده .

والغرض من إيراد هذه القاعدة :

الرد على بعض الشبه التي يوردها المشركون ، ومنها :

١. أن شرك الأولين إنما كان في الربوبية .

٢. أن الصالحين لهم جاه عند الله ، فنطلب منهم ، لأنهم أقرب منا إلى الله ، ونحن أصحاب ذنوب .

٣. أن الأولين كانوا يعتقدون في ما يتوجهون إليه التأثير والنفع والضر ، وأما نحن فجعلناهم واسطة فقط .

وجميع هذه الشبه يأتي الجواب عنها مفصلاً في شرح كتاب كشف الشبهات إن شاء الله .

تنبيه : الحق أن أخص شرك كفار قريش ، ومن قبلهم من الكفار في الأمم الماضية ، هو صرف العبادة لغير الله بقصد الشفاعة ، والقربى ، ولكن يوجد عند بعضهم ، أو في بعض أحوالهم اعتقاد النفع والضر من غير الله ، كما في مسألة التنجيم ، وغيره .

وقد جاء عن قوم هود عليه السلام أنهم قالوا له ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ يعني بخبل وجنون ، كما ذكر ذلك ابن جرير عن مجاهد وغيره .

وجاء عن إبراهيم عليه السلام في سورة الأنعام أنه قال لقومه ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ وقال لهم ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ .

وذلك أنهم قالوا له : إنا نخاف أن تمسك آلهتنا بسوء من برص أو خبل ، لذكرك إياها بسوء .كما ذكر ذلك ابن جرير .

وجاء عنه في سورة العنكبوت قوله لقومه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾

لذا قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله : فإن المشركين الأولين **قل** منهم من يزعم أن من يلجأ إليه يستقل بجلب المنافع ودفع المضار .

وقال ابن أبي العز: وكثير من مشركي العرب وغيرهم ، قد يظن في آلهتهم شيئاً من نفع أو ضر بدون أن يخلق الله ذلك.

تنبيه : ذكر الشيخ هنا أقسام الشفاعة من حيث الحكم ، وسبق الكلام عنها في شرح كتاب التوحيد .

القاعدة الثالثة :

أن النبي ﷺ ظهر على أناس متفرقين في عباداتهم ، منهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين ، ومنهم من يعبد الأشجار ، والأحجار ، ومنهم من يعبد الشمس ، والقمر .

وقاتلهم رسول الله ﷺ ولم يفرق بينهم .

والدليل قوله تعالى ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ .

ودليل الشمس ، والقمر ، قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

ودليل الملائكة ، قوله تعالى ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ .

ودليل الأنبياء ، قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ .

ودليل الصالحين ، قوله تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ .

ودليل الأشجار ، والأحجار ، قوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ .

وحديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال : خرجنا مع النبي ﷺ إلى حنين ونحن حد ثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها (ذات أنواط) فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . الحديث .

وخلاصتها : أن الشرك هو صرف العبادة لغير الله أياً كان المصروف له ، سواء كان عظيماً أو حقيراً ، عاقلاً أو غير عاقل.
قال تعالى ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ، و ﴿ شَيْئًا ﴾ نكرة تعم كل شيء .
وقال تعالى ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ ، و ﴿ أَحَدًا ﴾ نكره تعم كل أحد .

وبيان ذلك : أن المشركين الذين أرسل إليهم النبي ﷺ خاصة ، كانوا مختلفين في عبادتهم لغير الله ، فمنهم من كان يعبد الملآئكة ، ومنهم من كان يعبد الأنبياء والصالحين ،ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ،ومنهم من يعبد الشمس والقمر[1].
ومع ذلك دعاهم النبي ﷺ جميعاً إلى إفراد الله بالعبادة ، فدل أنهم مشركون ، و لم يفرق بين معبوداتهم بقوله : من توجه للأحجار والأشجار فتوجهه خاطيء ، ومن توجه للصالحين فلا بأس ، بل جعل الجميع شركاً ،وهذا في غاية الوضوح .

---

(١) ذكر الشيخ هنا الأدلة على كل ذلك .

....

والغرض من إيراد هذه القاعدة :

الرد على شبهة من يقول : إن الإلتجاء إلى الصالحين ليس شركاً ، وإنما كفر كفار قريش لأنهم صرفوا توجههم للأحجـــار والأشجار ، فكيف تجعلون الصالحين كالأحجار والأشجار ؟

ويأتي الجواب عن هذه الشبهة مفصلاً في شرح كتاب كشف الشبهات إن شاء الله .

القاعدة الرابعة :

أن مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين ، لأن الأولين يشركون في الرخاء ، ويخلصون في الشدة ، ومشركوا زماننا شركهم دائماً في الرخاء ، والشدة .

والدليل قوله تعالى ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّـهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

تمت وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

وخلاصتها : أن المشركين المتأخرين أغلظ شركاً من المشركين الأولين .

وبيان ذلك : أن المشركين الأولين يشركون بالله في الدعاء في وقت الرخاء ، ويخلصونه له في وقت الشدة ، كما قال الله تعالى عنهم ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّـهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ .

وأما المتأخرين فإنهم يشركون بالله في الرخاء والشدة ، فيلجئون إلى الأولياء حتى في وقت الشدة .

هذا ما ذكره الشيخ هنا ، ومن خلال التتبع وجُد أن المشركين المتأخرين أغلظ شركاً من الأولين – على سبيل العموم في الجميع – في مواضع ، منها :

١. أن غالب المشركين الأولين يلجئون إلى الله وقت الشدة ، كما قال تعالى عنهم ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّـهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

قال في تيسير العزيز الحميد : حتى جاء أنهم إذا جاءتهم الشدائد في البحر يلقون أصنامهم في البحر ، ويقولون : يا الله ، يا الله . لعلمهم أن آلهتهم لا تكشف الضر ، ولا تجيب المضطر أ.هـ

وقد ثبت أن كثيراً من المتأخرين يلجئون إلى أوليائهم وقت الشدة ، وهذه كتبهم طافحة بهذا المعنى (١).

٢. الذي وصلنا عن المشركين الأولين أنهم يلجئون إلى الصالحين من عباد الله ، كالملائكة ، وصالحي الجن والإنس ، أو إلى مخلوقات خاضعة لله ، كالأحجار والأشجار ، وأما المتأخرين فإنهم يلجئون إلى ما سبق ، والى أهل الفسق والفجور كابن عربي وغيره ، ويزعمون أن ما يفعلونه من الزنا وشرب الخمر وترك الصلاة ونحوها ، إنما هو لرفع التكليف عنهم ، أو لأمر آخر لا يعرفه إلا خواصهم .

---

(١) ومن ذلك ندائهم للحسين ، وعبدالقادر ، والرفاعي ، وغيرهم عند الشدائد وطلب الحاجات ، ويذكرون عنهم العجائب ، حتى جاء عن بعضهم أن فلاناً يمد يده إلى البحر ويحمل المركب ويخرجه ، ولا تبتل يده بالماء . وبعض نسائهم إذا أخذها الطلق نادت : يا علي . يا حسين . وانظر الملحق في آخر هذا الشرح .

٣. أن **غالب** المشركين الأولين كانوا يتوجهون إلى معبوداتهم بقصد طلب الشفاعة والقربى ، كما قال تعالى عنهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ بدون اعتقاد النفع والضر فيهم .

وأما المشركين المتأخرين فإنهم جمعوا مع طلب الشفاعة والقربى ، اعتقاد التأثير في أولئك .

فأصبح طلبهم لهم لا طلب واسطة فقط ، بل طلب استقلال ، ولذا تجدهم يطلبون منهم أمور الدنيا ، كطلب الولد ، والمال ، وتفريج الكربات ، وغير ذلك ، ويخافون منهم في غيبتهم ، ولذا جعلوا للعالَم أربعة أقطاب ، يتصرف كل واحد منهم في ربع الدنيا ، والعياذ بالله . وانظر إلى الملحق في آخر هذا الشرح .

تنبيه : كلام الشيخ هنا هو في تغليظ شرك المتأخرين بما ذكر هنا ، وفي كتابه كشف الشبهات أيضاً ، وليس مراد الشيخ أن ما كان عليه كفار قريش في الجملة أهون مما عليه المتأخرون ، بل مراد الشيخ تغليظ شرك المتأخرين بما ذكر ، أما من حيث العموم فالحق أن كفار قريش أسوء حالاً من هؤلاء ، لجمعهم أموراً عدة من الشرك ، والكفر ، والدليل على ذلك : أن كفار قريش أبوّ عن قول (لا إله إلا الله) كما قال تعالى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وهؤلاء قالوها وخالفوها ، ومعلوم أن الجاهل أخف جرماً من المعاند[١] ، وأيضاً كفار قريش كذبوا بالقرآن ، وكفروا به واستهزؤوا به ، وهؤلاء آمنوا به وصدقوه بزعمهم ، وإن كانوا خالفوه في التطبيق ، وكفار قريش كذبوا النبي ﷺ ونسبوه إلى الجنون والسحر والشعوذة ، وغير ذلك من صنوف الأذى الحسي والمعنوي ، وهؤلاء ادعوا محبته حتى خرجوا بها عن مقام العبودية ، كما أن كفار قريش أنكروا البعث وقدرة الله على إحياء الموتى ، وهؤلاء أقروا بذلك ، إلى غير ذلك من المفارقات[٢] .

تنبيه آخر : أما من حيث الأعيان والفِرَق فهناك من هو أعظم شركاً ، وكفراً من كفار قريش والعياذ بالله ، وكلامنا هنا عن الصنفين على سبيل العموم .

والغرض من إيراد هذه القاعدة :

هو بيان عظم الشرك الذي عليه المتأخرون ، والتحذير منه .

---

(١) قال شيخنا ابن عثيمين : ومعرفة الحق دون العمل به أشد من الجهل بالحق .

(٢) شغب البعض على الشيخ رحمه الله بسبب هذا الكلام ، وفهموا أن مراده تفضيل ما عليه كفار قريش ، على ما عليه المتأخرون على سبيل العموم من أنواع الشرك ، والكفر ، والتكذيب ، وهذا الفهم خاطيء ، والجواب عنه ما ذُكر أعلاه .

و لم يتفرد الشيخ بهذا الكلام ، بل إن عدداً من علماء العالم الإسلامي المعتبرين ، الذين عاشوا في زمن غربة الدين ، وانتشار الشرك حتى صار ديناً يُتعبد به ، قالوا هذا الكلام ، ومن هؤلاء الإمام الشوكاني ، والألوسي ، وحامد الفقي ، وغيرهم .

والمطلع على اعتقاد الروافض في هذا العصر ، ويسمع كلامهم ، وعظيم شركهم ، لا يشك في صحة هذا الكلام .

ومن نظر إلى كتاب دمعة على التوحيد ، لا يشك لحظة في صدق هذا الكلام ، والله المستعان .

ملحق بالشرح :

هذا ملحق يبين حال ما عليه بلاد المسلمين ، من تفشي الشرك ، والخرافة ، بل لا يوجد بلد إسلامي اليوم خالٍ من صور الشرك الصراح بوجود الأضرحة ، والقبور ، إلا بلاد التوحيد ، بلاد الحرمين ، حرسها الله من مضلات الفتن .

وقد كانت بلاد المسلمين في عافية من كل هذا الخرافات منذ انتشرت دعوة التوحيد على يد آخر الرسل ﷺ ، وأول ما ظهرت المشاهد والقبور **في آخر المائة الثالثة على أيدي الروافض** .

يقول ابن تيمية : و لم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم من ذلك شيء في بلاد الإسلام ، لا في الحجاز ، ولا اليمن ، ولا الشام ، ولا العراق ، ولا مصر ، ولا خراسان ، ولا المغرب ، و لم يكن قد أحدث مشهد ، لا على قبر نبي ، ولا صاحب ، ولا أحد من أهل البيت ، ولا صالح أصلاً ، بل عامة هذه المشاهد محدَثة بعد ذلك ، وكان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بني العباس ، وتفرقت الأمة ، وكثر فيهم الزنادقة الملبّسون على المسلمين ، وفشت فيهم كلمة أهل البدع ، وذلك من دولة المقتدر في أواخر المائة الثالثة ، فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القدّاحية في أرض المغرب ، ثم جاؤوا بعد ذلك إلى أرض مصر .

ويقول رحمه الله : و لم يكن في العصور المفضلة مشاهد على القبور ، وإنما كثر بعد ذلك في دولة بني بويه لما ظهرت القرامطة بأرض المشرق والمغرب ، وكان بها زنادقة كفار مقصودهم تبديل دين الإسلام ، وكان في بني بويه من الموافقة لهم على بعض ذلك أ.هـ

والناظر في دول العالم الإسلامي اليوم يرى العجب العجاب من عدد الأضرحة والقبور ، ومن ما يفعل عند هذه الأضرحة من الشرك الأكبر الصراح ، مما لا يوجد في بلاد الكفار وللأسف .

ففي مصر مثلاً يوجد أكثر من ستة آلاف ضريح . بل لا تكاد تخلو محافظة أو بلدة من ضريح .

يقول الدكتور زكريا سليمان بيومي : إن القرى التي تخلو من أضرحة الأولياء أطلق المشايخ أمثلة شعبية على بخل هذه القرى ، وخلوها من البركة ما زالت سارية بين الناس حتى الآن! .

أما في الشام : فقد أحصى عبد الرحمن بك سامي سنة (١٨٩٠م) في دمشق وحدها (١٩٤) ضريحاً ومزاراً ، بينما عد نعمان قسطالي المشهور منها (٤٤) ضريحاً ، وذكر أنه منسوب للصحابة أكثر من سبعة وعشرين قبراً ، لكل واحد منها قبة ويزار ، ويتبرك به .

وفي **الآستانة** (**القسطنطينية**) عاصمة السلطنة العثمانية كان يوجد (٤٨١) جامعاً ، يكاد لا يخلو جامع فيها من ضريح ، أشهرها الجامع الذي بني على القبر المنسوب إلى أبي أيوب الأنصاري في الآستانة .

وفي **الهند** يوجد أكثر من مئة وخمسين ضريحاً مشهوراً ، يؤمها الآلاف من الناس .

وفي **بغداد** كان يوجد أكثر من مئة وخمسين جامعاً في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، وقلّ أن يخلو جامع منها من ضريح .

وفي **الموصل** يوجد أكثر من ستة وسبعين ضريحاً مشهوراً ، كلها داخل جوامع ، وهذا كله بخلاف الأضرحة الموجودة في المساجد ، والأضرحة المفردة .
وهكذا كان الأمر في جزيرة العرب قبل دعوة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله .

وأما ما يحدث عند هذه الأضرحة من مخالفة لدين المرسلين فشيء لا يمكن أن يحصر ، من الشرك بأنواعه الأكبر ، والأصغر ، في الربوبية ، والألوهية ، والأسماء والصفات ، كذلك ما يحصل عندها من البدع ، والخرافات ، ومن المخالفات الأخلاقية .

من ذلك اعتقاد القبوريين في الأضرحة ، وأصحابها ، أنهم يسمعون ، ويبصرون ، ويجيبون من يتوجه إليهم ، وأنهم يعلمون الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، وأن لهم قدرة في التصرف ، والتأثير في الكون بما ليس في طاقة البشر : كالخلق ، والإفناء ، والإحياء ، والإماتة ، وشفاء الأمراض ، والنفع ، والضر ، والعطاء ، والمنع ، والإغناء ، والإفقار ، وتحويل الأشياء عن حقيقتها .
كما زعم القبوريون أن في الأضرحة ، وأصحابها القدرة على الرفع ، والوضع في الدنيا ، والآخرة ، وتفريج الكربات ، وقضاء الحاجات ، ومحو الذنوب ، وغفرانها .

ومن ضلال بعضهم اعتقادهم أن بعض الأولياء يقول للشيء (كن) فيكون ، ويقول بعضهم :

قد خصني بالعلم والتشريفِ   إن قلتُ (كن) يكن بلا تسويفِ

وتقول إحدى الفرق في قبر شيخها : إن قبره ومزاره دار الشفاء للمرضى ، وأنه حلاّل المشاكل ، ومسهّل الأمور ، وقاضي الحاجات ، وإن المرضى كانوا يستشفون من عيسى ، ولكن أحمد رضا يحيي الأموات!.
ولقد اعتاد القبوريون على أنهم بزيارتهم لهذه الأضرحة ستأتيهم البركة ، ويشفون من مرضهم ، أو يفكون عقم نسلهم ... وكانوا يَمَسُّون عمامة صاحب الضريح – بعد الولائم – أملاً في شفاء أوجاع الرأس ، ويَمَسّون قفطانه للعلاج من الحمى ، ولحس الحجر لفك عسر اللسان ، وتقديم العرائض طلباً لرفع الظلم ، وتمسح النساء في الضريح أملاً في إنجاب الذكور .
ومن المواقف المعاصرة العديدة في ذلك : أنه قد زعم الخليفة الحالي للسيد البدوي في مولد عام ١٩٩١م : أن السيد البدوي موجود معك أينما كنت ، ولو استعنت به في شدتك ، وقلت : يا بدوي مدد ، لأعانك وأغاثك ! قال ذلك أمام الجموع المحتشدة بسرادق وزارة الأوقاف في القاهرة أمام العلماء والوزراء ، وقد تناقلته الإذاعات ، وشاشات التلفاز .
وحدث أن السلطان جقمق أبطل مولد البدوي لما فيه من الوثنيات الموبقات ، والفواحش بين الرجال والنساء ، وحدث لبعض المقيمين بإبطال هذا المولد ابتلاء لهم ، فمنهم من عزل من منصبه ، ومنهم من أمر السلطان بنفيه ، ومنهم من وضع في السجن ، فأشاع الصوفية أن كل ذلك من عمل البدوي ؛ لأنه غضبان عليهم ، فآلة الحرب النفسية الصوفية تعمل على كل حال .
وذكر أبو بكر العراقي عن أحد القبوريين وهو إمام وخطيب في أحد مساجد ديالى المهمة ، يقول : دعوت الله ست سنوات أن يرزقني الولد فلم أرزق ، وذهبت إلى شيخي مصطفى النقشبندي في أربيل فما أن استغثت به وطلبت منه الولد حتى رزقت بطفلين توأمين . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

يقول أحدهم : إن الوهابيين يقولون : إن أولياء الله لا يستطيعون دفع الذباب عن قبورهم . ولكنهم لا يعلمون أن لهم قدرة أن يقلبوا العالم كله ، ولكنهم لا يتوجهون إلى ذلك .

ويقول الشيخ أخلاق حسين القاسمي ، أحد أبناء طائفة الديوبندية الصوفية : إن أرواح المؤمنين وخاصة أرواح الأولياء والصالحين قادرة على التصرف في هذا الكون بعد مفارقة الأجساد .

وهذه الأضرحة عندهم حرس الحدود الذي يقوم على صد الأعداء ، بل ومنع الفتن والأوبئة ! فكل مدينة كبيرة أو صغيرة محروسة بولي من الأولياء ، فهو الذي يحميها من العين ، ومن الغارات ، ومن نكبات الطبيعة ، ومن طمع الطامعين .

وبناء على ذلك الاعتقاد يذكر الكوثري أن أرض الشام يحرسها من الآفات ، والبلايا أربعة من الأولياء الذين يتصرفون في قبورهم !

وبخلاف الأضرحة الكبرى التي تحرس المدن المهمة والمراكز الحيوية ، يشيع هذا الاعتقاد أيضاً عند القبوريين في القرى والنجوع ، ففي مركز مغاغة بالمنيا ، وعلى وجه التحديد بقرية بني واللمس على البحر اليوسفي ، يشتهر مقام سيدي حسن أبو رايتين . ويعتقدون أنه يحرس القرية ويحفظها من السرقة وعداوات الدم ، ويلجئون إليه لرفع المظالم.

وهي عندهم وسائل دفاع جوي!، فضريح علي الروبي بالفيوم بمصر أنقذ المدينة من الدمار خلال الحرب العالمية الثانية ، ببركته التي حولت مسار القنابل إلى بحر يوسف! .

وهي عندهم معين المدد والذخيرة ، فأثناء الثورة العرابية روَّج القبوريون إشاعة قوية مفادها أن كبار الأولياء الدسوقي ، والبدوي ، وعبد العال ، أهدوا أحمد عرابي ثلاثة مدافع ليستعين بها على منازلة الإنجليز .

وعندما يستدعي الموقف الإمداد بـ "قوات خاصة" لمنازلة عدو شديد البأس يطلب القبوريون المدد من الأضرحة وأصحابها أيضاً ، فعندما أغار التتار على بلاد الشام كان القبوريون يخرجون يستغيثون بالموتى عند القبور ، ولذا قال بعض شعراء القبورية : يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبي عمر

وحين أغار جنود الفرنسيين والإفرنج على مصر صاح المحاربون في المسلمين وصرخوا مستغيثين بغير الله مع الله : يا رب يا لطيف ، ويا رجال الله ، ونحو ذلك .

وذكر الشيخ رشيد رضا أنه عندما زحفت روسيا على مدينة بخارى فزع الناس إلى الاستغاثة بحامي بخارى ، كما يسميه أهلها ، شاه نقشبند ، فلم يغن عنهم شيئاً .

وذكر أيضاً أنه انتشر بين أهل مراكش، عند حلول النوائب بهم ، وتعدي الأجانب عليهم ، الاجتماع حول قبر الشيخ إدريس في فاس ، طالبين أن يكشف ما نزل بهم من الشدة ، تاركين ما تقتضيه حال العصر من التربية والتعليم ، والإعداد العسكري للأعداء .

وقد قال أحد كبار الصوفية في زمن احتلال الإنجليز لمصر : لو أراد إبراهيم الدسوقي خروج الإنجليز من مصر ما بقي إنجليزي واحد .

وذكر الدكتور سيد عويس في كتابه المهم "رسائل إلى الإمام الشافعي" أن إحدى الرسائل الموجهة إلى ضريح الإمام الشافعي ، والمؤرخة في أكتوبر سنة ١٩٥٥م ، يطلب صاحبها فيها عقد جلسة شريفة يحضر فيها معه سيدنا الحسين ، وسيدنا الحسن ، والست زينب أم هاشم ، وجميع أهل بيت النبي! ويطلبون من الله مسح إسرائيل اليهود ، وإزالتها من على وجه الأرض المقدسة في الأسبوع ، ويكون — إن شاء الله — آخر ميعاد يوم الثلاثاء القادم !

– ومما يذكره الجبرتي أنه عند مغادرة الفرنسيين للقاهرة سنة (١٢١٦هـ) هرع قائد الجيش العثماني حسين باشا القبطان إلى زيارة المشهد الحسيني ، وذبح فيه خمس جواميس وسبعة أكباش ، واقتسمتها خدمة الضريح .

فهل أضر مؤثر بقوة الأمة أعظم من هذا التخدير الذي سرى في جسدها بفعل أفيون تقديس القبور والأضرحة ؟

وكتب على قبر ومزار جلال الدين الرومي : صالح للأديان الثلاثة ، المسلمين واليهود ، والنصارى ، ويدعى هذا الوثن بالقطب الأعظم .

–يقول الكاتب المصري مصطفى المنفلوطي : كتب إليّ أحدُ علماء الهند كتاباً يقولُ فيه : إنه اطلع على مؤلف ظهر حديثاً بلغة "التاميل" ، وهي لغة الهنود الساكنين بناقور وملحقاتها بجنوب مدراس ، موضوعه "تاريخ حياة السيد عبد القادر الجيلاني ، وذكرُ مناقبه وكراماته" ، فرأى فيه من الصفات والألقاب التي وصف بها الكاتب السيد عبد القادر ولقّبه بها صفات وألقاباً هي بمقام الألوهية أليق منها بمقام النبوة ، فضلاً عن مقام الولاية ، كقوله : سيد السموات والأرض ، والنفّاع الضرّار ، والمتصرّف في الأكوان ، والمطلع على أسرار الخليقة ، ومحيي الموتى ، ومبرئ الأعمى والأبرص والأكمه ، و أمره من أمر الله ، وماحي الذنوب ، ودافع البلاء ، والرافع الواضع ، وصاحب الشريعة ، وصاحب الوجود التام ، إلى كثير من أمثال هذه النعوت والألقاب !

ويقول الكاتب : إنه رأى في ذلك الكتاب فصلاً يشرح فيه المؤلف الكيفية التي يجب أن يتكيّف بها الزائر لقبر السيد عبد القادر الجيلاني ، يقول فيه : أول ما يجب على الزائر أن يتوضأ وضوءاً سابغاً ، ثم يصلي ركعتين بخشوع واستحضار ، ثم يتوجّه إلى تلك الكعبة المشرفة ، وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول : يا صاحب الثقلين ، أغثني ، وأمدّني بقضاء حاجتي وتفريج كربتي ، أغثني يا محيي الدين عبد القادر ، أغثني يا ولي عبد القادر ، أغثني يا سلطان عبد القادر ، أغثني يا بادشاه عبد القادر ، أغثني يا خوجة عبد القادر ، يا حضرة الغوث الصمداني ، يا سيدي عبد القادر الجيلاني ، عبدك ومريدك مظلوم عاجز محتاج إليك في جميع الأمور في الدين والدنيا والآخرة .

ويقول عرفة عبده علي: وقد احتشدت مؤلفات مناقب السيد البدوي بكرامات أسطورية غريبة لا تحصى، منها على سبيل المثال : إحياء الموتى ، وإنقاذ الأسرى في بلاد الفرنجة ، وقوله للشيء كن فيكون بإذن الله ! .. فماذا ترتب على هذا الاعتقاد في البدوي ؟.

ويقول الكاتب نفسه : وكثير من أتباعه يجعلونه في مترلة أسمى من مرتبة الأنبياء!.

- ويحكي عبد الله بن محمد بن خميس مشاهداته عند قبر ابن عربي بدمشق ، فيقول :
لقد ذهبت إلى قبر ابن عربي في دمشق فوجدت فئاماً من الناس يغدون إليه ويروحون .. وجدتهم يطوفون حوله ، ويتوسلون به ، ويعلنون دعاءهم له من دون الله .. وجدت المرأة تضع خدها على شباك الضريح وتمرغه وتنادي: اغثني يا محيي الدين .. وجدت الصبايا البريئات يجئن إليه ، ويمددن أمامه الأكف ، ويمسحن الوجوه ، ويخشعن ، ويتضرعن .
وفي الهند أصبح قبر الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني مرجع الخلائق في العصر الأخير ، ويطوفون حوله ، ويعملون ويصنعون على قبره جميع الأعمال اللائقة بالمعبود ، كالسجود، والنذور ، وما أشبه ذلك.
وضريح الشيخ علي الهجوري في لاهور في باكستان ، وهو من القبور العظيمة ، والناس يزورونه كل سنة ، بل كل يوم ، ويطوفون حوله ، ويسجدون له ، ويقدمون النذور ، ويستغيثون به ، ويطلبون العون والمدد .
وعند القبر المنسوب إلى هود في حضرموت يحدث من الشرك الأكبر ما يعجز القلم عن وصفه ، شأنه في ذلك شأن كل الأضرحة في البلاد الأخرى .
وقد بولغ في تقديس هذا الضريح ، فتراهم يشدون الرحال لزيارته ، وعندهم شيء من بقايا الشعور الوثني الذي كان يشعر به العرب للات والعزى ، يستعينون به ، ويتوجهون إليه ، ويولون وجوههم شطره لقضاء الحاجات ، واستنزال البركات ، ودفع الكربات .
كما أن شطراً من العامة في صعيد مصر يرى أن الطواف سبع مرات بقبر الشيخ القناوي بقنا فيه غناء عن أداء الحج إلى بيت الله الحرام .
وعلى ذلك فليس بمستغرب أن يقول السخاوي : جاء الحُجاج هذه السنة لسيدي أحمد البدوي من الشام وحلب ومكة، أكثر من حجاج الحرمين! .
وفي إريتريا مثلاً يقصد كثير من القبوريين الأضرحة حاملين معهم الأغنام والأبقار والسكر والقهوة والشاي ، وغيرها من أنواع الأطعمة إضافة إلى الأموال ، ليقدموها قرباناً إلى صاحب الضريح ، وقد يذبحون الأنعام تقرباً أيضاً للولي أو الشيخ ، ويطوفون بالقبر ، وبتمرغون بترابه ، ويطلبون قضاء الحوائج ، وتفريج الكربات منه ، كما يحصل من الفساد الأخلاقي حول الأضرحة ما يستحيي الإنسان من ذكر تفاصيله ، وخاصة الاختلاط ، وانتهاك الأعراض ، وتكثر هذه الممارسات حول الأضرحة الشهيرة ، كضريح الشيخ "بن علي" وضريح "سيدي هاشم الميرغني" وبنته الست علوية ، وضريح الشيخ "عبد القادر الجيلاني"، وضريح "أحمد النجاشي".
ويزداد الأمر سوءاً في السودان؛ حيث يحرص أتباع هذه الأضرحة والمنتفعون منها على التأصيل لهذه الانحرافات، فتلقى المحاضرات وتؤلف الكتب في الحث على ذلك، ومن أشهرها: رسالة عبد الله المحجوب الميرغني، المتوفى سنة (١٢٠٧هـ)، واسمها: "تحريض الأغبياء على الاستعانة بالأنبياء والأولياء"، يقول فيها: "ولهذا يتبين لك وجوب التعلق بالوسائل والأسباب، وتأكد لزوم التزام الوسائط والأبواب، فتعلق بالوسائل والأسباب، والجأ واستغث، وانده [من النداء] لخواص الله والأحباب، واطرق لدى الخطوب ما شئت من الأبواب، تنل بذلك من فيض الوهاب ما لا يدخل في حساب".

وفي بنجلاديش يأتي الناس إلى المزارات ويظنون أنها أقدس مكان على وجه الأرض ، لذا فهم يسجدون أمام الأضرحة إجلالاً لها واحتراماً ، ويطلبون من أصحابها الذرية ودفع المصائب وتفريج الكروب ، كما يقدمون لهم النذور من الأموال والحيوانات كالغنم والبقر التي تذبح باسم صاحب القبر ، وأخيراً ينصرفون وهم يظنون أنهم فعلوا خيراً كثيراً ؛ لأنهم يعتقدون أن لأصحاب هذه الأضرحة يداً في تصريف الأمور ، بل وفي إدخالهم الجنة ، ويكون عدد المترددين أكثر بعد العصر وخاصة ليلة الجمعة .

فهل هذه التصرفات إلا للتعظيم والإجلال والرهبة وتعلق القلب بالضريح وصاحبه ؟ وأحوالهم في ذلك عديدة : فمقام النبي هارون بالأردن يهجع الزائر المؤمن تحت ظله فيشعر بما لا يوصف من المسرة والحبور، وتزور المرأة العاقر مقام النبي يوشع حافية خاشعة ، وتجثو أمام الضريح وتقبله بدموع وتضرع .. ومنهن من يرقدن الليالي الطويلة بين أسواره بالصوم والصلاة ثم يغادرنه وفي أنفسهنّ الآمال والمسرات .

ويقول البريلوي أحمد رضا المسمي نفسه بعبد المصطفى : إنني لم أستعن في حياتي بأحد و لم أستغث بغير الشيخ عبد القادر ، وكلما أستغيث أستغيث به ، ومرة حاولت أن أستغيث وأستعين بولي آخر ، وعندما أردت النطق باسمه للاستغاثة ، والاستعانة ما نطقت إلا بـ (يا غَوْثاه) ، فإن لساني يأبى أن ينطق الاستعانة بغيره .

وهذا الموقف النفسي يرصده شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عندما يتحدث عن تفرق القبوريين حسب تمسك كل منهم بالضريح الذي تتوق نفسه إليه ، فيقول : ولهذا كان المتخذون القبور مساجد لما كان فيهم من الشرك ما فيهم ، قد فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، فتجد كل قوم يعظمون متبوعهم أو نبيهم ، ويقولون : الدعاء عند قبره يستجاب ، وقلوبهم معلقة به دون غيره من قبور الأنبياء والصالحين ، وإن كان أفضل منه ، كما أن عباد الكواكب والأصنام كل منهم قد اتخذ إلهه هواه ، فهو يعبد ما يألهه ، وإن كان غيره أفضل منه .

– والمسألة في حقيقتها : اعتقاد في تأثير الأرواح ؛ فإنهم قالوا : الميت المعظم الذي لروحه قرب ومزية عند الله تعالى لا يزال تأتيه الألطاف من الله تعالى ، وتفيض على روحه الخيرات ؛ فإذا علق الزائر روحه به وأدناه منه : فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها ، كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية ، والماء ونحوهما على الجسم المقابل له .

والاعتقاد السائد : أن البركة إنما تسري من الولي إلى الضريح إلى المناديل ، والملابس التي مسحت بها ، والأغرب من ذلك : ما يحدث عند تغيير كسوة الضريح وعمامة الولي الخاصة ، هنا يسعى الجميع للحصول على قطع من هذه الكسوة ، أو العمامة مع استعدادهم لسداد أي مبلغ يطلب منهم .

و لم يستح القبوريون في طلبهم المنهوم للبركة المزعومة أن يستسيغوا المعاشرة الزوجية في هذه الأضرحة .

فهذا الشعراني صاحب أكبر سجل لخرافات القبوريين يذكر من كرامات (البدوي) أنه دعاه إلى فض بكارة زوجته فوق قبة قبره ، فكان الأمر ! .

وفي السودان وصل الأمر – في العصر الحاضر – عند بعض الرجال المخرفين إلى مجامعة زوجاتهم عند أضرحة الأولياء ، بدعوى نيل البركة .

ومن مظاهر الشرك أيضاً عند الأضرحة والقبور :

أولاً : الحلف والإقسام بأصحاب القبور .

يقول الإمام الصنعاني: ويقسمون بأسمائهم ، بل إذا حلف من عليه حق باسم الله تعالى لم يقبلوا منه ، فإذا حلف باسم ولي من أوليائهم قبلوه وصدقوه ، ولن يصدق أحد من الحالف إلا إذا حلف بواحد منهم ، وهذا كان شيئاً طبيعياً كنا نـــراه في القرى ونحن صغار ، ولا زال يجري للآن .

ويقول الشيخ سليمان بن عبدالله : ولهذا لو توجهت على أحدهم يمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الأيمان ، صـــادقاً أو كاذباً ، ولو قيل له : احلف بحياة الشيخ فلان أو بتربته ، ونحو ذلك لم يحلف إن كان كاذباً ، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أعظم في قلبه من رب الأرباب ، وما كان الأولون هكذا ، بل كانوا إذا أرادوا التشديد في اليمين حلفوا بالله تعالى ، كما في قصة القسامة التي وقعت في الجاهلية ، وهي في صحيح البخاري أ.هـــ

وعندما سئل أحد التجار : لماذا يقسم بصندوق ضريح القرية ، ولا يقسم بالله عندما يحاسب زبائنه ؟ أجاب : إنهم هنا لا يرضون بقسم الله ، ولا يرضون إلا بقسم صندوق نذور الضريح ، أو سور الضريح لسيدنا فلان .

ثانياً : لاذوا واحتموا بها .

فكما جعل الله سبحانه البيت الحرام ملاذاً من دخله كان آمناً ، جعل سدنة الأضرحة تلك الأضرحة الوثنية حرماً آمناً يهرع إليها المجرمون والفارون ، ويلجأ إليها الخائفون ، ليأمنوا في رحابها ، ويستريحوا في ظلالها .

وكثيراً ما عفي عن اللائذين بالأضرحة من المجرمين إكراماً للمدفونين أو خشية ورهبة من انتقامهم وبأسهم .

ثالثاً : توجهوا إليها بالطلب والدعاء .

وهذه بدأت بأن بث بعض المتصوفة فكرة أن الدعاء عند قبور الأولياء والصالحين مستجاب ، وانتهت بأن أخـــذ العـــوام يطوفون بقبور الصالحين ، يستعينون بهم ، ويخاطبونهم ، ويستنهضون هممهم بالصياح والصراخ ، حتى أصـــبح الواقـــع أن الناس قد أكثروا من دعاء غير الله تعالى من الأولياء الأحياء منهم والأموات وغيرهم ، مثل : يا سيدي فلان ، أغثني !

ومن المفارقات أن تلك العبادة تتجلى واضحة عند القبوريين في المواطن التي كان المشركون يخلصون فيها الدعاء لله وحده ؛ لأنهم يعلمون أن آلهتهم لا تجيبهم ولا تنفعهم في تلك المواطن ، ويحكي محمد السنوسي أنه حين كان راكباً في البحـــر ، وهاجت الرياح ، وتلاطمت الأمواج حتى كادت السفينة أن تغرق ، أخذ يستجير- كما يقول - بكل ما يستحضره مـــن الأولياء كي يكشفوا كربته!

وليس هذا حالة خاصة ، بل إن من المشاهد اليوم أن كثيراً من الناس يستغيثون بالمشائخ والأنبياء والأئمة والشهداء .

رابعاً : ذبحوا ونذروا لها .

وهذه أيضاً من الشعائر اللازمة للاعتقاد في القبور والأضرحة ، فالرعاة في شرقي الأردن يطوفون بالأغنام حول مقام النبي يوشع في أزمان الأوبئة ، ويختارون خير النعاج ، ويصعدونها إلى سطح المقام وينحرونها فيسيل دمها على عتبته .

وصندوق النذور عند ضريح البدوي في مصر يستقطع من الدهماء ملايين الجنيهات ، وللحكومة ٣٩% من هذه الأموال!! وسائر الأموال لسدنة الضريح ، والعاملين عليه!! وحسبك أن تعلم أن ما يناله خادم الضريح من هذه الأموال أكثر مما يناله

كبار الأطباء ، والمهندسين ، وأساتذة الجامعات .

وكثيراً ما يقترن الذبح بالنذر ، ولا شك أن الذبح والنذر سواء أكان ذبحاً ، أو إهداء زيت ، أو إعطاء نقود .. من العبادات التي لا تجوز إلا لله تعالى. لذلك يقول الإمام الصنعاني رحمه الله : والنذر بالمال على الميت ونحوه ، والنحر على القبر ، والتوسل به ، وطلب الحاجات منه ، هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية ، وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثناً وصنماً ، وفعله القبوريون لما يسمونه ولياً وقبراً ومشهداً .

وفي مولد أبي الحسن الشاذلي في محافظة البحر الأحمر في مصر ينحر ذبائح تصل إلى (١٢٠) ألف رأس من الخراف والماعز والإبل (صحيفة المصري اليوم ،٢٨/١٢/٢٠٠٦

وكانت حصيلة النذور في مصر في الفترة (٢٠٠٥-٢٠٠٦) بلغت ٥٢ مليوناً و٦٧ ألف جنيه ؟ (حوار لوزير الأوقاف المصري مع جريدة الأخبار .

وترتفع الخرافة إلى ذروتها حينما يعمد القبوريون إلى إضافة التخصصات للأضرحة بعد تقسيم درجاتها إلى كبرى ، وصغرى ، فمثلما كان للإغريق ، ومن بعدهم للرومان واليونان ؛ إله لكل شيء ، إله للحرب ، والهة للحب ، وإلهة للخصب ، وإله للخمر ، وجدنا عند القبوريين أضرحة ومزارات تشتهر بتخصصها في حاجات مختلفة ، يخصونها بالتوجه إليها لطلب هذه الحاجة منها .

ولعل من هذا القبيل : الأضرحة والمزارات النسائية ، كمقام الشيخة مريم ، التي يحتفل بمولدها مرتين : مرة في شم النسيم ، والأخرى في ذكرى مولد النبي ﷺ ، وقد اشتهرت ببركتها في الشفاء من العقم .

وكذلك يطلب القبوريون من ضريح الشيخة صباح في طنطا إبراء النساء من العقم ، ومزار "بنات عين" في معان بالأردن انتشر ذكره بين العواقر ، يفدن إليه بالقرابين والمصابيح لنيل البرء والشفاء ، وهو مختص بالنساء فقط ، ويدعونه بالمستشفى النسائي!

إضافة إلى تلك الأضرحة والمزارات التي اشتهرت بتخصصها النسائي ، هناك ضريح "النبي شعيب" في وادي السلط الجنوبي بالأردن ، وهو ولي! مرهوب مختص بالأقسام الكبرى ، إذا أشكلت الدعاوى واستعجمت مذاهبها ، ويطلب القاضي البدوي القسم الرهيب في بركة شعيب .

وفي حلب بسورية اعتاد بعض الناس هناك أن يسافروا إلى ضريح الشيخ ريح زاعمين أنهم يشفون من ريحهم .

وللناس في قبر أبي العلاء المعري "بمعرة النعمان" بسورية أيضاً اعتقاد عظيم، يبيِّتون على قبره شربة ماء ويستعملونها للبرء من الحمى .

وفي مدينة طنطا بمصر يطلب الناس هناك من ضريح عز الرجال ، وهو أحد تلاميذ البدوي شفاء الأطفال ، ومن ضريح محمد الحدري المعروف بالعمري شفاء أمراض الروماتيزم!

ينصح بالرجوع إلى كتاب (دمعة على التوحيد) للوقوف على ما هو أكثر من ذلك .